مع الرفيق يوسف خطار الحلو مسؤولاً في الحزب
ثم معه إعلامياً وعضواً في نقابة الصحافة حتى آخر العمر

عالم قائم بذاته، أبو وضاح. نسيج وحده. مدرسة في الكفاح والحياة لا تتكرر. مناضل على كل الجبهات، لا يكل، ولا يمل، ولا يتعب. حاضر في كل آن، ومكان، وفي كل قضية. بسيط ، من دون افتعال، مثل كل ناس شعبنا العاديين الطيبين. رائع في بساطته، متميّز فيها، إلى حدود الاستحالة. هكذا كان، في حياته كلّها، وحياته كانت كلّها، في جوانبها كافة، جزءًا لا يتجزأ من نسيج الحزب الشيوعي، منذ خمسة وستين عاماً، بلا انقطاع. لم تقهره صنوف الحياة، وصعوباتها، وأحداثها، واضطراباتها، وعواصفها الهائجة، منذ ثلاثينات القرن الماضي، حتى التسعينات منه، لا سيما التسعينات. وهي جميعها من النوع الذي يزعزع الجبال الراسخة. لم تبهره الانتصارات الكبرى، إلى الحدود التي ينسى معها الوقائع. ولم تروعه الهزائم، إلى الحدود التي تولد عنده اليأس. ظلَّ محتفظاً بقناعاته، في كل الظروف والشروط. ذلك أنّ إيمانه بالذي كان يؤمن به، وكان يرهن حياته كلّها من أجله، لم يكن إيماناً أعمى، ولم تأتِ به إليه الصدف العابرة، ولا كان من جنس الإيمان الذي تولده وتغلّفه وتعلّبه المشاعر البسيطة. بل كان إيماناً أرقى من كل ذلك، إيماناً بقضية ولدت مع الإنسان، وتبقى معه، منذ الأزل وإلى الأبد، قضية الحرية والحق والتقدم والسعادة، إيماناً يستند إلى معرفة تجمع بين العلم والوعي والأحاسيس، وتوحِّد بينها حتى الاندماج الكامل. من هنا مصدر القوة في هذا الإيمان، ومصدر الصلابة والثبات، ومصدر الاستقرار الذي لا تهزّه المحن، ولا تزعزعه الأعاصير.

هل أتحدث، هنا، عن إنسان استثنائي، عن إنسان لا وجود له إلاّ في شخص محدَّد؟ معاذ الله من هذا التجاوز الفظ لحدود الواقع، يا أبا وضاح. فذلك ما لا يقبل به، هو ذاته، وما لا يستقيم، قطعاً، في تحديد سمات الإنسان البسيط ، والمناضل الثابت، فيه.

وإني لأشعر وأنا أودع رفيقاً، وأخاً، وأباً، وصديقاً، وقائداً، في آن، من نوع أبي وضاح، أن الكلمات، مهما كبرت، واتسعت، واستطالت، واغتنت، لا تسعف في تحديد سماته وصفاته، وتعجز عن اختصار حياته الغنية الطويلة. حسبي، وأنا أودّعه، بعد خمسة وأربعين عاماً من رفقة النضال، أن أُعلن بصوت، أبح متهدج، حزني العميق على فراقه، شأني في ذلك شأن العديدين من أبناء جيلي، ومن أجيال عديدة أخرى، أتت بعدي، ممّن عرفوه، في الحزب، وعلى هامشه، وخارجه،

ورافقوه، وعاشوا وعانوا معه، وعملوا في كل ميادين النشاط والنضال إلى جانبه، وفي رفقته. وآخرها عضو في نقابة الصحافة ممثلاً للمؤسسات الإعلامية للحزب.

تعرفت إلى "أبو وضاح" في مطالع خمسينات القرن الماضي. ورافقته في بعض النشاطات الحزبية عندما كان مسؤولاً في الحزب في غياب الرفيقين فرج الله الحلو ونقولا شاوي خارج البلاد. وكنت قد تعرفت إلى ابن شقيقته بولس الحلو الذي كان زميلاً لي في التدريس في مدرسة بلدة شمسطار البقاعية في عام ١٩٥٠. ومن خلال بولس دخلت إلى بلدة حصرايل، بلدة آل الحلو وتعرفت إلى تاريخها وإلى عدد من رموز آل الحلو فيها كان في مقدمتهم أبو وضاح.

رافقت أبو وضاح في العمل في جريدتي الأخبار والنداء. وكنت إلى جانبه على امتداد حياته في المرحلة التي اخترناه ليكون ممثلاً للمؤسسات الإعلامية للحزب عضواً في نقابة الصحافة اللبنانية. خلال تلك الأعوام الطويلة من رفقة أبو وضاح تكونت لدي معرفتي العميقة به وبسمات شخصيته. وهو ما عبّرت عنه في الكلمات السالفة التي ودعته بها.